إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الأولى ـ العدد الثاني ـ صيف ١٣٩٠ش / حزيران ٢٠١١م

وقفة نقدية مع نتاجات الشاعر الإيرانى جامى

على گنجيان خنارى*
فاطمة نصراللهى**

الملخص

ظهر فى إيران وفى القرن التاسع من الهجرة شاعر بارع وعارف سالک خلّف نتاجات شعرية ونثرية عديدة لاتزال مرجعا علميا للمحققين، وطالبى الأدب والتصوف إلى يومنا هذا. ولد عبدالرحمن جامى سنة سبع عشرة وثمانمائه فى مدينة جام فى بيت علم وورع. بدأ دراسته منذ الطفولة عند أبيه ودخل مجالس العلم، وتتلمذ عند كبار الأساتذة، وأخذ منهم العلوم المختلفة كالفقه والفلسفة والحكمة وغيرها.وله أيضا مقدرة شعرية عالية، رفعته إلى أعلى الدرجات الأدبية بين شعراء الفرس. وهو بسبب ميله إلى التصوف التحق إلى الطائفة النقشبنديه المشهورة حيث كانت تضمّ كبار مشايخ الصوفية، فالتزم بمبادئها حتى أصبح فيما بعد شيخا من شيوخها، وواعظا من وعّاظها. أما آثاره فمنها الشعر ومنها النثر، وهى تمثل براعة الشاعر الأدبية، و لاتخلو من نزعاته الصوفية، ومنها ديوان شعره الذى يشتمل على القصائد والغزليات والرباعيات والدوبيت، وهو مملوء بالوعظ والحكمة والحب الخالص لمبدأ الحياة ومقصدها. عاش جامى إحدى وثمانين سنة وتوفى سنة ثمان وتسعين وثمانمائة فى هرات ودفن فيها. فجاء هذا المقال كى يلقى الضوء على نتاجات هذا الأديب الإيرانى البارع.

الكلمات الدليلية: جامى، التصوف، الصوفية، العارف، الشاعر، الأديب.

*. عضو هيئة التدريس بجامعة العلامة الطباطبايى ـ أستاذ مساعد.
**. خريجة جامعة آزاد الإسلامية فى كرج.

التنقيح والمراجعة اللغوية: د.عبدالحميد أحمدى.

Aliganjian1969@yahoo.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٤/١٢هـ. ش
تاريخ القبول: ١٣٩٠/٥/١٨هـ. ش

المقدمة

أخذ التيموريّون بمقاليد الحكم بإيران فی القرن التاسع للهجرة. وباستقرار حكومتهم شرقی البلاد رجع الأمن والسلام إلی المجتمع الإيرانی بعد أن تعرّض بسبب المنافسات السياسية لأنواع من الفتن والمحن، وفی ظلّ هذا السلام حصل تقدم كبير. وكان من ميزات هؤلاء الملوک الاهتمام بالعلم والأدب، وكان بلاطهم لايخلو من العلماء والأدباء والفنّانين، فازدهرت العلوم المختلفة فی هذا العصر بصورة ملحوظة، منها: علم الفلک، والرياضيات، والحكمة، والكلام، والفقه، والأصول، والتصوف، والشعر، والنثر. وظهرت نتاجات أدبية مهمّة علی أيدی كثير من أدباء هذا العصر ومن بينهم الشاعر الصوفی عبدالرحمن جامی. (زرين كوب، ۱۳۶۳ش: ۶۳)

جامی نشأته وتطوّر حياته الاجتماعية والأدبية

اجتمع مؤرخو تاريخ الأدب الفارسی علی تاريخ واحد لولادة جامی، وهو وثيق لأنّه ثبت ذلک عن تلميذه الذی كان يعيش فی عصره وهو عبد الغفور لاری حيث يقول: «كان مولده فی خرجرد فی جام وقت العشاء الثالث والعشرين من شعبان المعظم سنه سبع عشر وثمانمائه.» (لاری، ۱۳۴۳ش: ۳۹) و عن اسمه ولقبه يقول: «كان لقبه الأصلی عماد الدين، ولقبه الذی اشتهر به نور الدين، واسمه عبد الرحمن.» (المصدرنفسه: ۳۹) ولقد أشار جامی نفسه إلی تاريخ ولادته فی قصيدة سماها رشح بال بشرح حال:

– فی سنة سبع عشر وثمانمائه من الهجرة النبوية.

– جئتُ من عالم الملكوت إلی عالم الملک، أی هذه الدنيا الفانية. (جامی، ۱۳۴۱ش: ۵۹)

وفی مقدمة ديوان أشعاره «فاتحة الشباب» يتحدّث عن مولده وسبب تخلّصه بجامی بقوله: «وبما أنَّ مولد هذا الفقير كان فی جام، وفيها المرقد المطهر والمشهد المعطر لشيخ الإسلام أحمد جامی اخترت لنفسی جامی.» (جامی، ۱۳۸۳ش:۱۶)

وقد ذكر سبب تخلصه فی القصيدة السابقة قائلا:

– مولدی جام وقدرة قلمی مستمدّة من وجود شيخ الإسلام أحمد جامی.

– لهذين السببين جعلت تخلصی الشعری جامی. (جامی، ١٣٤١ش: ٧٦)

وأبان عبد الغفور لاری عن نسب جامی بقوله: «كان والده أحمد بن محمد الدشتی من سهل إصفهان وهی من أحيائها. وجدّه مولانا محمد تزوّج من إحدی بنات الإمام محمد الشيبانی وكان مولانا أحمد والد جامی منها.» (لاری، ١٣٤٣ش: ٤٠)

دراسته

«هاجَرَ والد جامی، نظام الدين الدشتی، وأهله من سَهل إصفهان إلی جام وشغل منصب القضاء والفتوی.» (آل رسول، ١٣٨٣ش: ١٢) فبدأ جامی مشواره الدراسیّ هناک تحت إشراف أبيه المباشر وهو فی سنّ الطفولة، كما يشير إلی ذلک لاری بقوله: «ذات يوم دار الحديث عن أساتذته، قال: إننی تلميذ أبی حقّا، فقد تعلّمت اللغة منه، وبيّن أنّه تعلّم الصرف والنحو عند أبيه.» (لاری، ١٣٤٣ش: ١١)

ثم انتقل جامی لمّا كان شابّاً مع أبيه إلی مدينة هرات، يقول عبد العلی نور أحراری: «هاجر نظام الدين أحمد وولده عبدالرحمن من جام إلی هرات عاصمة خراسان. كان شاهرخ التيموری حاكما ذاک الزمن علی ملک خراسان الواسع، ومن أثر اهتمامه أصبحت هرات من أعظم المراكز العلمية. ولم يكن جامی قد بلغ سن الرشد آنذاک.» (جامی، ١٣٨٣ش: ١٩)

التحق جامی بمجالس العلم فی هرات، وهو شابّ مستعدّ لتلقّی العلوم، تقول آل رسول: «قداستقبلت مجالس الدرس ومحافل العلم والأدب فی هرات هذا الطفل المستعد، أدرَک أساتذته من البداية ذكاءه النادر فی فهم المسائل العلمية وتعلّمه العلوم البلاغية والكلامية، وما لبث أن بَرع فی العلوم النقلية والعقلية، وانفرد فی عصره وطار صيته فی العالم.» (آل رسول، ١٣٨٣ش: ١٤) يقول جامی عن دراسته: «ثمَّ انصرفتُ إلی كسب العلوم وتابعت العلماء والفضلاء.» (جامی، ١٣٤١ش: ٦٠)

وأمّا أساتذة جامی الذين تَوَلّوا أمر تعليمه فی هرات، فيحصيهم عبد الغفور تلميذ

جامی علی ترتیب أقدَمیتّهم، ویقول: «ولما جاؤوا إلی هرات، کان فیها مولانا جنید، وهو رجل بارع فی العلوم العربیة، وحینما حضر جامی درسه کان جنید مشغولا بتدریس شرح المفتاح أو المطوّل، وقد أحَسّ جامی برغبته فی الإلمام بهذا العلم، وانصرف إلی قراءة المطوّل وحاشیته، ثمّ شارک فی درس مولانا خواجه علی السمرقندی، الذی کان من أعاظم المدققین فی عصره، وهو أذکی وأقوی تلمیذ للسید الشریف الجرجانی، وبعد ذلک کان یذهب إلی أبیه مولانا محمد الجرجانی، وهو من الفضلاء الباحثین فی عصره.» (لاری، ۱۳۴۳ش: ۱۱)

وبعد مضی عدة سنوات، ترک جامی هرات، وذهب إلی مدینة سمرقند لیواصل دراسته، وهناک تعرّف علی معلم جدید یقول عنه لاری: «بعد ذلک حضر فی سمرقند فی درس قاضی زاده الرُومی، وهو کان من المحققین فی عصره. فی زیارته الأولی وقع بینهما بحث، وطال هذا البحث حتی استطاع جامی اقناع الأستاذ بکلامه.» (المصدر نفسه: ۱۲)

کما ورد آنفا کان جامی تلمیذا سریع الخاطر، ومتقدّما فی العلوم بسرعة لاتوصف، علی رغم أنّه لم یکن یحضر فی صفوف الدرس کسائر التلامیذ، کما یقول لاری عنه: «فی أیّام دراسته التی کان فیها مهتّما بالدرس فی کثیر من الأوقات، کان یأخذ الکرّاسة من أحد زُمَلائِه، ویأخذ فی مطالعتها لحظة، وعند الحضور فی الدرس کان یفوق الحاضرین فی الصف. کانت مدّة دراسته قصیرة وبراعته فی العلوم الحقیقیة والرسمیة من الأصول معروفة ومن الفروع مشهورة.» (لاری، ۱۳۴۲ش: ۱۰)

وکان ذکاؤه بحیث یتفوّق علی أساتذته، وهذه قضیة یؤیّدها کلّ من کان علی صلة به، وهو نفسه أول شخص یُعبِّرُ عن هذا الموضوع ویقول: «ما کانت مدّة دراستی عند أساتذتی طویلة بحیث أنّهم ما غَلَبوا علیَّ فی الدرس ولکنّی غلبت علیهم، وکنّا فی المستوی الواحد فی العلم ولیس لهم فی ذمّتی حقٌّ علیّ بوصفهم أساتذتی.» (حکمت، ۱۳۸۶ش: ۶۴)

ویؤکد براون ما أشار إلیه حکمت قائلا: «کان لجامی ذکاء خاص منذ طفولته،

وكلّما زاد عمره زاد اكتسابه للعلوم أكثر، وكان ينصرف إلى تكميل دراسته عند الأساتذة المشهورين، ولكن ما يلبث أن يتفوق عليهم، ومن ثمّ يكتسبون هم عنده المعرفة.» (براون، ١٣٥١ش: ٧٥٠)

ويقول أستاذ جامى، قاضى زاده الرومى: «منذ أن كانت سمرقند وحتى اليوم لم يعبر أحد بحر آمويه إلى شاطئه الآخر بقوة طبع هذا الشابّ، أى جامى، وقوة تصرفه.» (جامى، ١٣٨٣ش: ٢١)

هكذا كان جهدُ جامى فى كسب العلوم والمعارف، وقد تَفوّقَ على معاصريه من زملائه وأساتذته وبَلَغ درجاتٍ علميةً ما بلغها أحدٌ فى عصره.

تصوفه

كان من خصائص القرن التاسع انتشارُ عقائد الصوفية فى الممالک الإسلامية عامة وفى إيران خاصة ولاسيّما شرقيّ البلاد. كان من خُلُق تيمور الإكرام والتعظيم لمشايخ الصوفية وأعاظم التكايا، كما أنّه كان إذا دَخَل مدينة يذهب إلى زيارة الشيوخ أولا ثمّ إلى زيارة أكابرهم من الأموات ويستمدُّ منهم العون فى الأمور. هذه العقيدة شاعت بين أعقاب تيمور وأحفاده ولأجل هذا الدعم السياسى تَفَوَّقت الصوفية على الفرق الأخرى فالتحق الكثير من أهل العلم والأدب بطائفة من طوائفها. (جامى، ١٣٨٦ش: ٦-٧)، ومنهم جامى الذى يقول عن اعتصامه بالصوفية: «دخلتُ فى الطائفة الصوفية الصافية قُلوبهم وهم الذين يعملون بعلمهم وهذا مقصدهم.» (جامى، ١٣٤١ش: ٦١)

والطائفة التى اختارها جامى ومال إليها هى الطريقة النقشبندية التى يقول عنها حكمت: «تشكلّت فرقة معتدلة ولكنها كانت متعصبة لأهل السنة وموافقة لسلاطين العصر فى ماوراء النهر وانتشرت فى أواخر القرن الثامن انتشاراً عظيماً وهذه الجماعة هى الفرقة النقشبندية التى قد أسّسها خواجه بهاء الدين عمر البخارى (المتوفى بسنة ٧٩١ هـ) وانصرف الكثيرون من الناس إلى هذه الطائفة فى بخارا وسمرقند حتى أقصى خراسان وبعد ذلک فى الهند وشاعت شيوعاً عظيماً.» (حكمت، ١٣٨٦ش: ٧)

وأمّا سبب انخراط جامی فی الفرقة النقشبندية فلم يكن سبباً عادياً مألوفاً بل كان شبيهاً بالإلهام كما نقل عبد الغفور لاری فی كتابه: «ذات ليلةٍ، كأنّها ليست بليلٍ بَل هی صُبح السعادة الذی أشرق من أفق فضل ذی الجلال والإفضال من مشرق اللطف التقی بقدوة العرفاء الكاملين سعد الملة والدين كاشغری وسمع بأذُن الفطرة أنّه قال: اذهب وخُذ بناصرٍ لا حيلة منه.» (لاری، ١٣٤٣ش: ١٢)

وهكذا دعاه سعد الدين كاشغری مرشدُ الطريقة النقشبندية إلى نواحی هرات ولَبّی جامی هذه الدعوة وأسرَعَ إلی هرات، يقول عنه لاری: «هو تأثَّرَ بهذا الحادث وتوجَّه إلى جانب خراسان وأرادَ الوصول إلى سعد الدين الكاشغری.» (المصدر نفسه: ١٣)

بعد أن رجع جامی إلى هرات وجد سعد الدين الكاشغری لزم الطائفة النقشبندية والتحق بالصوفيه، يقول لاری: «كان يَجلسُ سعد الدين الكاشغری علی باب المسجد الجامع فی هرات القريب من بيته ويتكلم مع المتصوفة وكان مَمرّ جامی فی كلّ يومٍ من هناک، كلّما يمّر أمام الخواجة يقول: هذا رَجلٌ عجيب الكفاية، هو جَذَبنا ولكن لاندری كيف نأخذه. فی أوّلِ يومٍ زاره قال: وقع نَسرٌ فی شَبَكتِنا.» (المصدرنفسه: ١٣ - ١٤) استَقَرَّ جامی فی موطن المتصوفة وبدأ بالقيام بأعمالهم والالتزام بشعائرهم تحت إشراف مرشده، ووَضَع قدمه فی طريق السير والسلوک وفی مسيرته تَعَرَّفَ علی عدد كثير من شيوخ الصوفية واكتسب الفَوائد الجَّمة منهم. إنَّ آخِر مرشدٍ لجامی ومراد له والذی ما قطع جامی صلته به وكان مُريدَه حتی نهاية عمره هو خواجه ناصر الدين عبيد الله المشهو ر بــخواجه أحرار الذی يقول علی أصغر حكمت عنه: «وأما خواجه ناصر الدين عبيد الله مرشد الطائفة النقشبندية فی خراسان وماوراء النهر والذی كان معاصراً لجامی ومعترفاً بعظمته وكان فی مختلف كتبه يخاطبه بالأستاذ والمخدوم، فهو من كبار الرجال فی هذا العصر.» (حكمت، ١٣٨٦ش: ٧٢)

فالانصراف إلى التصوف كان أكبر حادث فی حياة جامی وقد أحاط بكلِّ جوانبها، وسماته بيِّنةٌ فی آثاره تماماً بحيث أن الحكمة والإرشادات الإلهية ملأت نظمه ونثره.

زواجه وأولاده

تزوَّجَ جامی بإحدی بنات مراده سعد الدین الکاشغری، یقول عنه فخر الدین علی صفی: «ولا یخفی أنّه کانت لخواجة کلان، الابن الکریم لمولانا سعد الدین الکاشغری، بنتان تزوّجت إحداهما من جامی والأخری من راقم هذه السطور.» (حکمت، ۱۳۸۶ش: ۷۶)

وفیمایتعلّق بأولاد جامی جاء فی کتاب رشحات عین الحیوة: «أنجَبَت تلک الصبیّة لجامی أربعة أبناء، ولم یتمتّع الأوّل منهم بالحیاة إلّا یوماً واحداً ولم یُسمّ، والثانی و هو الخواجة صفی الدین محمد تُوفی بعد سنةٍ وحزن جامی علی وفاته حزناً شدیداً والثالث الخواجة ضیاء الدین یوسف وقد وُلد سنة ۸۸۲ هـ والرابع الخواجة ظهیر الدین عیسی الذی أبصر النور تسع سنوات بعد ولادة أخیه الخواجة ضیاء وکانت ولادته سنة ۸۹۱ هـ وتُوفی بعد أربعین یوماً.» (المصدر نفسه: ۷۶-۷۹) وجاء فی کتابمنشآت جامی فی معرض الحدیث عن أولاده: «لقد مات أولاد جامی کلّهم فی حیاته إلّا ضیاء الدین یوسف، ونظم مولانا فی رثاء ولده صفی الدین قصیدة فی سبعة مقاطع مؤجّجة بعاطفة الحزن الشدید. وکان مولانا جامی یحبّ ولده ضیاء الدین یوسف حبّاً جمّاً ولهذا السبب نری أنّه یذکر اسمه فی آثاره المنظومة والمنثورة وینصحه ویدعوله بالخَیر.» (جامی، ۱۳۸۳ش: ۳۴)

وفاته

یتحدث عبد الغفور لاری عن وفاة أستاذه ـ جامی ـ قائلا: «عاش جامی إحدی وثمانین سنة وکان هذا بعدد حروف کلمة کأس.» فحینئذٍ أخذ الساقی فی حانة وحدة ذی الجلال والإفضال کأس لقاء الرب بیده وذلک فی الثامن عشر من محرم الحرام سنة ثمان وتسعین وثمانمائه، وفی السنة الأخیرة من عمره بدت آثار الموت علیه وکان یَتَفّوهُ بعبارات تدلّ علی دُنوّ رحیله ویسعی فی إعداد الآخرین للمفارقة ویُکَرِّرُ هذین البیتین:

- واحسرتاه فإن الدهر سَيُنبِتُ الزهر وسيأتى الربيع كثيراً ونحن لسنا موجودين.
- تأتى الشهور وتنقضى وإنّنا تَبدّلنا إلى التراب وإلى اللبنات.

وقبل مرضه بعدة أيام عزم جامى على الذهاب إلى إحدى مناطق المدينة، اضطرب الأصحاب لحاله وطلبوا منه الرجوع ولكنه قال: يجب أن نترک بعضنا بعضاً.

وخاطب أحدَ مريديه، قبل مرضه بثلاثة أيّام، قائلاً: «أشهد أننا لسنا رَهين محبّة أحدٍ. وبعد رجوعه إلى البيت بدأه المرض؛ وفى صباح يوم الجمعة، اليوم السادس من مرضه، والثامن عشر من محرم الحرام، كشفت حركة نبضه عن قرب رحيله إلى دار القرار... فما إن نؤدى للصلاة من يوم الجمعة حتى رحل جامى من مقام الفناء إلى دار البقاء... وفى صباح يوم السبت حضر فى جنازته حاكم الزمان السلطان بهادر خان مع كبار الأمراء والوزراء و أكابر الزمان، وذهبوا بها إلى مقبرة سعد الدين الكاشغرى. ففتحت الأرض فمها كالصدف وجعلت هذه اللؤلؤ القيّمة فى صدرها.» (لارى، ۱۳۴۳ش: ۴۰ -۴۴)

شاعريته

من أهم القضايا التى دعت إلى القيام بهذا البحث هى طبع جامى الشعرى إذ نراه أنه كان شاعراً كبيراً جدّاً وسِجّله الأدبى مملوءٌ بالأشعار البديعة واللطيفة، والمعانى العميقة والحكيمة، ولهذا السبب يُعرف فى إيران بأكبر شاعرٍ فى القرن التاسع للهجرة ولُقِّبَ بخاتم الشعراء، يقول على أصغر حكمت فى هذا المجال: «كان من كمالات أستاذ جام ذوقه الشعرى الذى اشتهر به فى عصره؛ وقد كان معروفاً بشاعريته عند أكثر الناطقين باللغة الفارسية فى إيران وتركستان والهند، ولُقّبَ بخاتم الشعراء لأنّه انقضى بوفاته نظم الشعر بأسلوب الشعراء القدامى؛ الأسلوب الذى كان مُتَّبَعا فى خراسان وفارس والعراق؛ وبعد وفاته حتى القرن الثالث عشر لم يشرق نجمٌ مثل تلک النجوم القديمة فى أفق الأدب الفارسى.» (حكمت، ۱۳۸۶ش: ۱۱۱)

كان الشعر أمراً فطرياً عند جامى، فأكَبَّ على نظم الشعر طوال عمره من شبابه إلى مشيبه. وقد أقَرَّ بأنّه ما استطاعَ أن يَترُک نظم الشعر فى كلِّ وقت من الأوقات، ويقول

فی مقدّمة ديوانه الأول عن مَقدُرته الفطرية فی نظم الشعر: «الفقير المنكسر، عبد الرحمن جامی، الذی لم يتخلّص من ظلام الكَون بسبب أنّ الله تعالی جعل فی فطرتی ذوق نظم الشعر والحبّ له، وما استطعتُ أن أزيله تماما عن صفحة قلبی أبداً. لا جَرَم أنّ من بداية الشباب الذی هو عنوان صحيفة الحياة حتی اليوم الذی تجاوز عمری الستين وهو قريب من السبعين، ما كان التحرّر منه ممكناً وما كان لبالی راحة منه.» (جامی، ۱۳۸۳ش: ۲۶)

يشكو جامی من اشتغاله بنظم الشعر فی قصيدته رشح بال بشرح حال، ويقول:

- مررتُ من جبل الطور ولكن ما استطعتُ أن أترک نظم الشعر أبداً.
- تُبتُ من نظم الشعر آلاف المرات ولكن ما وُفِّقتُ بتركه. (جامی، ۱۳۴۱ش: ۶۱)

يُشير عبد الغفور لاری إلی شغف أستاذه بإنشاد الشعر طول حياته بقوله: «إنّه كان ينظم الشعر فی جميع الأوقات وكان منشغلاً به فی أوائل الحال وفی وقت الكمال. ولكنّه لم يُخَصّص له من الوقت إلّا قليلاً.» (لاری، ۱۳۴۳ش: ۶)

كان جامی يحدّد لنظم شعره قسما يسيرا من وقته لِأنّه كان ذا مَقدرة فذّة فی قرض الشعر من جانب، ومن جانب آخر كان الشعر أصغر كمالٍ بين كمالات جامی وأقلّ فن بين فنونه الأخری القيّمة، يقول لاری: «كان الشعر لثاماً لوجه الأسرار، الشاعرية ساترة لحاله، فهذان الأمران كانا فی الحقيقة سدّين لفضله وكماله، وكان الناس يعتبرون الشعر من أفضل فضائله ولكنّه هيهات، إنّ الشعر مُكوَّن من الخيال وأين الكمال من الخيال؟» (المصدرنفسه: ۹)

أصبح جامی مشهوراً بشعره بحيث طار صيته إلی أقصی نقاط العالم ولفت انتباه الملوک والسلاطين فی البلاد الأخری وكانوا يعجبون بشعره وقد أشار الشاعر نفسه فی قصائده إلی مكانته الشعرية التی وصل إليها:

- أصبحتُ مشهوراً بشعری فی كلِّ العالم بحيثُ قد ملأت السماء من هذا النشيد،
- لو ذهبت قافلة أشعاری إلی فارس لرضيت بها روح سعدی وحافظ.
- ولو اتّجهت إلی الهند لقال خسرو والحسن يا غريب العالم مرحباً بک، تعال تعال. (جامی، ۱۳۴۱ش: ۶۱)

كان جامی عالما متواضعا وهذه الميزة بارزة فی جميع أحواله وآثاره ويشهدُ به كلُّ أصحابه وأقرانه ولهذا السبب نراه عندما يتحدّثُ عن مواهبه وعلمه بحيثُ يَشعرُ القارىء بأنّه مغترٌّ بنفسه، يسعی بسرعة إلی تدارک الأمر والرجوع إلی تواضعه المعهود، ويقول:

– الفضائل التی أحصَيتُها لنفسی فی هذه القصيدة كانت خطأ ومحالا.

– التظاهر بالعلم عملٌ سَيِّءٌ، ولهذا من الأفضل أن يُكتَب اسمی فی فهرس الجُهّال.

(المصدر نفسه: ٦١)

جامی والأدب العربی

كان جامی مُلِمّا باللغة العربية وأسرارها متذوقا لآدابها؛ جاء فی كتاب جامی: «لقد كان شاعرنا جامی ذا باع طويل فی علوم التفسير، واللغة، والتاريخ، والحديث، والشعر، بحيث أثّر ذلک تأثيرا بالغا علی نتاجاته الفارسية من جهة تركيب الجمل والكلمات حينا ومن جهة اتخاذ النصوص والمعانی حينا آخر؛ وكان له فی الأدب العربی كنزٌ وافرٌ وخزانة كاملة قد نَثَر منه اللآلی الرطيبة والدُرَر الملّونَةَ علی بساطه العلمی.» (حكمت، ١٣٨٦ش: ١٢٦)

وبراعتُهُ فی اللغة العربية كانت بحيث أنّه ألَّفَ حولها كُتُباً قيّمَة أصبحت مرجعا لطلّاب علوم هذه اللغة؛ يقول حكمت: «كِتابُ الفوائد الضيائية الذی ألّفه لولده ضياء الدين يوسف شرحٌ لكتاب الكافية، لابن حاجب، ويعتبر عند المحققين من أحسن الكتب فی علم النحو، ويقوم بتدريسه معلّمو اللغة العربية حتی يومنا هذا ويستعينون به لمعرفة ما صعُب عليهم من هذا الفن.» (المصدرنفسه: ١٢٧)

جاء فی كتاب روضات الجنات تفسيراً لكتاب الفوائد الضيائية، مايلی:

«وهو من أحسن ما كتب فی هذا الموضوع، وأدّقها نظراً، وأبلغها تقريراً وأتمّها تهذيباً وتحريراً، وأجمَعها للنكات والدقائق والتحقيقات، ونُقِلَ عن المولی ميرزا محمد الشروانی الفاضل قوله: إنی درست هذا الشرح خمساً وعشرين مرة وصار اعتقادی فی كل مرة أنّی لم أستوف حق فهمه ومعرفته فی المرة السابقة.» (المصدرنفسه: ١٢٧)

کان جامی بارعاً فی ترجمته للنصوص العربية أيضاً وقد قام بترجمة کثير من المعانی العالية التی وردت فی القرآن الکريم، والأحاديث النبوية، وأخبار أعاظم الصوفية، وأمثال العرب، وحکمهم، وأشعارهم إلی اللغة الفارسية؛ وکانت قصائده الأخلاقية مرآة للأفکار العربية وآدابها، وکانت غزلياته التی ضمّت فی طيّاتها أبياتا عربية من أحسن الصُور وأجمل الأمثلة لامتزاج اللغتَين الفارسية والعربية، فاتّصفت نتاجاته بفصاحة کلام الناطقين بالضاد وبلاغتهم، وجزالة کلام أبناء العجم. (المصدرنفسه: ۱۲۷-۱۲۸)

فمن النماذج الدالة علی ذلک قوله:

أحنّ شــوقا إلــی ديار لقيت فيها جمال ســلمی

که ميرســاند از آن نواحــی نويد لطفی بجانب ما

زهــی جمال توقبله جان حريم کوی توکعبه دل

فإن ســجدنا إليک نسجد وإن سعينا إليک نسعی

بکت عيونی علی شــؤونی فساء حالی ولا أبالی

که دانم آخر طبيب وصلت مريض خود راکند مداوا

بناز گفتی فلان کجايی چه بود حالت در اين جدايی

مرضت شوقاً ومت هجرا فکيف أشکو إليک شکوی

(جامی،۱۳۴۱ش: ۱۲۷)

آثاره ونتاجاته

ترک لنا عارف جام آثاراً عديدةً بدأ بتأليفها من منتصف عمره إلی آخره؛ ومواضيع تأليفاته مختلفة کما عبّر عنها علی أصغر حکمت قائلاً: «قد ظهرت ملکة التأليف والتحرير عند أستاذ جام من أواسط عمره، إذ إنّ فترة نبوغه وظهور تأليفاته تقع فی القسم الثانی من عمره أی من الأربعين حتی الثمانين وما کتب خلال هذه الفترة ينقسم من حيث الشکل إلی نوعين، الکتب الفارسية والکتب العربية، ومن حيث المضمون إلی أنواع مختلفة: کالتفسير، والفقه، والعرفان، والحديث، والأخلاق، والشعر بقوالبه المتعددة

كالقصيدة والغزل، والعلوم اللغوية بفروعها المتنوّعة كالصرف والنحو، والعروض والقافية، والمعما، وتراجم الرجال ومضامين أخرى. وتنقسم آثاره الفارسية إلى فئتين هما النظم والنثر.» (حكمت، ۱۳۸۶ش: ۱۶۵)

وكثير من كتب تواريخ الأدب ذكرت فهرسا لآثار جامی ولكن أدّقها وأوثقها ما جاء فی تكملة رضی الدين عبد الغفور لاری مريد جامی ومرافقه فی حياته. فهو يُحصی لأستاذه سبعة وأربعين مؤلّفاً يأتی شرحه فی التالی:

«۱. التفسير، وتوقف تفسيره عند آية (وإيای فارهبون).

۲. شواهد النبوة.

۳. نفحات الأنس، مطبوع عدة مرات فی الهند وفی طهران.

۴. نقد النصوص، مطبوع فی بمبئی قبل مئة سنة تقريبا.

۵. رسالة طريقه خواجگان، طبع فی الهند.

۶. أشعة اللمعات، مطبوع فی الهند وإيران.

۷. شرح فصوص الحكم، طبع فی مصر والهند.

۸. لوامع.

۹. شرح لبعض أبيات تائية ابن الفارض.

۱۰. شرح القصيدة الخمرية الميمية الفارضية.

۱۱. شرح الرباعيات.

۱۲. اللوايح، طبع فی الهند وإيران.

۱۳. شرح بيتين من كتاب المثنوی، طبع فی كابل.

۱۴. شرح بيت لخسرو دهلوی، مطبوع فی إيران.

۱۵. شرح حديث أبی ذر بن عقيل.

۱۶. شرح سخنان خواجه پارسا، طبع فی الهند.

۱۷. ترجمة أربعين حديثا.

۱۸. رسالة تحقيق مذهب الصوفی والمتكلم والحكيم.

۱۹. رسالة فى الوجود.

۲۰. رسالة جواب وسؤال هندوستان.

۲۱. رسالة لا إله إلا الله.

۲۲. رسالة مناسک حج.

۲۳. هفت اورنگ مشتمل بر هفت کتاب:

۲۴.الکتاب الأول، سلسلة الذهب الذى طبع فى الهند وإيران وطاشکند.

۲۵. الکتاب الثانى، سلامان وأبسال الذى طبع فى إيران وطاشکند وإنجلترا.

۲۶. الکتاب الثالث، تحفة الأحرار الذى طبع فى إنجلترا.

۲۷. الکتاب الرابع، سبحة الأبرار الذى طبع فى الهند وإيران.

۲۸. الکتاب الخامس، يوسف وزليخا الذى طبع فى إيران والهند وطاشکند وإنجلترا وألمانيا.

۲۹. الکتاب السادس، ليلى ومجنون الذى طبع فى إيران وطاشکند وباريس وألمانيا.

۳۰. الکتاب السابع، خرد نامه اسکندرى.

۳۱. الديوان الأول.

۳۲. الديوان الثانى.

۳۳. الديوان الثالث.

۳۴. بهارستان والذى طبع فى الهند وإيران وترکيا عدة مرات وفى ألمانيا وإنجلترا.

۳۵. الرسالة الکبيرة المعروفة بمعمّا (اللغز).

۳۶. الرسالة المتوسطة.

۳۷. الرسالة الصغيرة.

۳۸. منظومة أصغر التى طبعت فى هرات.

۳۹. رسالة العروض والتى طبعت فى کلکتة.

۴۰. رساله القافية.

۴۱. رساله الموسیقی.

۴۲. رسالة المنشآت.

۴۳. الفوائد الضیائیة فی شرح الکافیة والذی طبع فی إیران عدّة مرّات.

۴۴. شرح قسم من مفتاح الغیب الذی لم یطبع.

۴۵. صرف فارسی منظوم ومنثور.

وفی مناسک الحجّ کَتَبَ جامی رسالتین:

۴۶. رسالةصغیرة، وهی المشهورة.

۴۷. ورسالةکبیرة، وقدألّفها علی أساس فقه المذاهب الأربعة، وهو فی طریقه إلی مکّة، وفقدت فی عرفات ولهذا السبب لیست معروفة.» (لاری، ۱۳۴۳ش: ۳۹)

النتیجة

عاش جامی فی عصر کان التصوف من أهمّ ظواهره. ومما ساعد علی انتشاره واشتداد شوکته هو أن الملوک التیموریین وأمراءهم کانوا من حماته فی منطقة حکمهم، وکان بلاطهم مختلف العلماء والأدباء فجمعوهم علی التصوف فقوی بهم وانتشر بین الناس انتشارا سریعا.وجامی الذی لقب بخاتم الشعراء بسبب أسلوبه الخاص فی الشعر قد وظّف قلمه لخدمة التصوّف ونشر تعالیمه فحمل بذلک رایته وبلّغ رسالته.

المصادر والمراجع

آل رسول، سوسن. ۱۳۸۳ش. *عرفان جامی در مجموعه آثارش*. تهران: وزارت فرهنگ وارشاد اسلامی.

براون، إدوارد. ۱۳۵۱ش. *از سعدی تا جامی*. ترجمه علی اصغر حکمت. تهران: انتشارات ابن سینا.

جامی، عبدالرحمن. ۱۳۴۱ش. *دیوان کامل*. ویراسته هاشم رضی. تهران: انتشارات پیروز.

جامی، عبدالرحمن. ۱۳۸۳ش. *رساله منشآت نورالدین عبدالرحمن جامی*. مصحح عبدالعلی نور احراری. تهران: شیخ الإسلام أحمد جام.

حکمت، علی اصغر. ۱۳۸۶ش. *جامی (متضمن تحقیقات در تاریخ احوال وآثار منظوم ومنثور خاتم*

الشعراء نورالدین عبد الرحمن جامی). تهران: انتشارات توس.
زرین کوب، عبد الحسین. ۱۳۶۳ش. *سیری در شعر فارسی*. تهران: انتشارت نوین.
لاری، رضی الدین عبدالغفور. ۱۳۴۳ش. *تکمله حواشی نفحات الأنس (شرح حال مولانا جامی)*. تصحیح بشیر هروی. تهران: انتشارات انجمن جامی.